الإمام مالك بن أنس ومنهجه في النظر الفقهي

يُعد الإمام مالك بن أنس أحد أبرز الأئمة الأربعة الذين قامت عليهم المذاهب الفقهية في الإسلام، وقد لُقّب بإمام دار الهجرة، لما نال من مكانة علمية في المدينة المنورة التي وُلد وعاش فيها، ولما عُرف به من التوثيق، والتثبت، وسعة الرواية، والوقار، حتى غدا فقهه مرجعية كبرى في تاريخ التشريع الإسلامي.

أولًا: نسبه ونشأته العلمية

هو **أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني**، وُلد سنة 93 هـ بالمدينة المنورة. نشأ في بيتٍ عُرف بالعلم والصلاح، وكان لأمه دور تربوي مهم في توجيهه نحو العلم والأدب؛ إذ كانت تأمره بارتداء أحسن الثياب عند الذهاب إلى مجلس شيخه ربيعة الرأي، وتقول له: "تعلَّم من أدبه قبل علمه" (ابن فرحون، 1986، ص. 6).

ابتدأ الإمام مالك طلب العلم منذ الصغر، فسمع من كبار التابعين، مثل :**نافع مولى ابن عمر، و ابن شهاب الزهري، وربيعة الرأي**، ولازم شيوخه سنوات طويلة، واشتهر بكثرة ملازمته لابن هرمز، حيث كان يجلس عنده من بكرة النهار إلى الليل.

ثانيًا: رحلته العلمية ومكانته

لم يكن الإمام مالك رحّالًا كسائر المحدثين، بل كان العلم يُشد إليه الرحال. مكث في المدينة يُحدّث ويفتي، فكان من **أئمة الرواية والفتوى معًا**، وبلغ من المكانة أن بعض شيوخه رووا عنه، ومنهم الزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري.

روى عنه عدد كبير من الأعلام، منهم :**الشافعي، وعبد الله بن المبارك، وسفيان الثوري، والأوزاعي، ومحمد بن الحسن الشيباني** .وأحصى القاضي عياض أسماء 1300 راويًا عنه (عياض، 1982، ج1، ص. 121).

وقد اتفق علماء الجرح والتعديل على **توثيق الإمام مالك وعلو منزلته**، فقال يحيى بن معين: "مالك إمام من أئمة المسلمين، مجمع على فضله وتثبّته". وقال علي بن المديني: "مالك أمير المؤمنين في الحديث" (الذهبي، 2006، ج1، ص. 204).

ثالثًا: أبرز مؤلفاته

أشهر مؤلفات الإمام مالك هو كتاب **الموطأ**، وهو أول كتاب صنّف في الحديث على أبواب الفقه، ويجمع بين الرواية والاستنباط. وقد أمضى الإمام مالك أربعين سنة في تصنيفه، حتى قال الشافعي:

"ما على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك" (النووي، 1996، ج1، ص. 4).

ومن مؤلفاته أيضًا:

- **الرسالة في القضاء**.
- **الرسالة إلى الليث بن سعد**.
- **الرسالة في القدر**.

أما **مدونة مذهبه**، فأشهرها *المدونة الكبرى* للإمام سحنون، تلميذ عبد الرحمن بن القاسم، وهي المعتمدة في المذهب المالكي.

رابعًا: منهجه في الفقه والاستدلال

لم يدوّن الإمام مالك بنفسه أصول مذهبه، لكن العلماء استنبطوا منهجه من فتاواه وأقواله. ويُجمع علماء المذهب على أن **مصادره الأساسية في الاستدلال هي**:

1. **القرآن الكريم**.
2. **السنة النبوية**.
3. **عمل أهل المدينة** :وهو من أهم مصادره، وقدّمه أحيانًا على خبر الآحاد، باعتباره نقلاً عمليًا متواترًا عن النبي ﷺ.
4. **أقوال الصحابة**.
5. **القياس**.
6. **الاستحسان**.
7. **سد الذرائع** :وهو أصل اشتهر به المالكية، ويعني منع الوسائل التي قد تؤدي إلى الحرام، وإن كانت في الأصل مباحة.
8. **العُرف**.
9. **المصالح المرسلة**.

وقد أشار القاضي عياض في *ترتيب المدارك* إلى أن الإمام مالك كان يجمع بين النقل والدليل، ويقدّم النص إذا ثبت، لكنه كان يراعي المقاصد والأعراف، ويرفض الفقه الافتراضي والجدل النظري (عياض، 1982، ج1، ص. 147).

خامسًا: خصائص منهجه الفقهي

تتميّز طريقة الإمام مالك في النظر والاستنباط بعدة خصائص:

- **التمسك الشديد بالنصوص** :فلا يُقدّم الرأي عند وجود النص الموثوق.
- **الاحتياط والتورع في الفتوى** :كان يقول: "ما شيء أشد عليّ من الفتيا في الحلال والحرام."
- **تجنّب الجدل والافتراض** :رفض الخوض في مسائل لا تقع، وكان يردّ على من يسأله في ذلك.
- **الاعتماد على الو اقع العملي** :كعمل أهل المدينة، الذي اعتبره دليلاً على التطبيق الجماعي المتصل بسنة النبي ﷺ.

سادسًا: أخلاقه ووقاره

اشتهر الإمام مالك بالوقار وتعظيم حديث رسول الله ﷺ. كان لا يُحدّث إلا على طهارة، ويتزين ويتهيأ لرواية الحديث، قائلاً: "أحب أن أعظّم حديث رسول الله ﷺ". كما كان كثير العبادة، ملازمًا للقرآن، بعيدًا عن الانشغال بالجدال أو السياسة.

سابعًا: وفاته

توفي الإمام مالك سنة 179 هـ بالمدينة المنورة، ودُفن بالبقيع، بجوار إبراهيم ابن النبي ﷺ. وقد شيّعه الناس بالجلالة التي كان لها في حياته، وخلّف تراثًا فقهيًا عميقًا، ومدرسة كبرى امتدت في الحجاز والمغرب والأندلس وإفريقيا وغيرها.

خاتمة

الإمام مالك ليس مجرد محدّث أو فقيه، بل هو **مؤسس مدرسة فقهية كبرى**، جمعت بين قوة الرواية، ورصانة الفتوى، وواقعية الاجتهاد، وأمانة النقل. وقد أسهم مذهبه في بناء العقل الفقهي الإسلامي، من خلال اعتماده على النص والمقصد، النقل والاجتهاد، والسنة والواقع.

المراجع:

- ابن فرحون، إبراهيم .(1986) .*الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب* .بيروت: دار الكتب العلمية.
- عياض، القاضي .(1982) .*ترتيب المدارك وتقريب المسالك* .الرباط: وزارة الأوقاف.
- الذهبي، شمس الدين .(2006) .*تذكرة الحفاظ* .بيروت: دار الكتب العلمية.
- النووي، يحيى بن شرف .(1996) .*تهذيب الأسماء واللغات* .بيروت: دار الفكر.